

يسوع المسيح بين المعرفة والجهل

الفصل الأول

الله الواحد

إن الكتاب المقدس كلمة الله الحية الباقية إلى الأبد يكلمنا عن:

وحدانية الله وذاته التي تسمو فوق العقل والإدراك بمقاييس لا تحد , فهو يكلمنا عن الله الذي لا شريك ولا نظير له, الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد وأنه لا أجزاء فيه, ولا تركيب, وهذا ما يسمى بالتوحيد.

إننا كمسيحيين نؤمن (أن لا إله إلا الله) وأنه لا تركيب فيه على الإطلاق.

«فاعلم اليوم وردد في قلبك أن الرب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه (تثنية 4:39) .

«أنا هو وليس إله معي» (تثنية 39:32) .

«هكذا يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود, أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري» (إشعيا 6:44) .

«هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن, أنا الرب صانع كل شيء, ناشر السموات وحدي باسط الأرض. من معي» (إشعيا 24:44) .

«أليس أنا الرب ولا إله غيري ومخلص ليس سواي» (إشعيا 21:45) وقال:

«أنت هو الرب وحدك» (نحميا 9:6) .

«أليس إله واحد خلقنا» (ملاخي 2:10) .

«اذكروا الأوليات منذ القديم لأنني أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي» (إشعيا 9:46) .

(وفي العهد الجديد آيات كثيرة أيضا :

ففي (مرقس 29:12) يأتي قول الرب الذي قاله للكاتب:

«الرب إلهنا رب واحد» وقول الكاتب للرب أيضا :

«بالحق قلت لأن الله واحد وليس آخر سواه» (مرقس 32:12) .

وفي (يوحنا 44:5) «المجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه».

وفي (رومية 30:3) «لأن الله واحد».

وفي (1كورنثوس 4:8) «نعلم أن ليس إله آخر إلا واحدا».

وفي (غلاطية 20:3) «ولكن الله واحد».

وفي (1تيموثاوس 5:2) «لأنه يوجد إله واحد».

وفي (يهوذا 25) «الإله الحكيم الوحيد مخلصنا».

وفي (1كورنثوس 5:12, 6) «أنواع خدم موجودة ولكن الرب واحد». وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل.

وفي رسالة (أفسس 4:5, 6) «رب واحد إيمان واحد معمودية واحدة إله وأب واحد للكل».

لا تركيب فيه

ولقد وردت آيات كثيرة في الكتاب المقدس تدل على عدم وجود تركيب في الله فقد قال له كل المجد «الله روح» (يوحنا 4:24).

وأنه «غير المنظور» (كولوسي 1:15).

وأنه لا يتحيز بحيز (مزمور 8:139 - 12).

وهذه الصفات تدل على أنه غير مركب لأن المركب متحيز بحيز, ومن الممكن أن يدرك أو يرى إذ إنه محدود بحدود الأجزاء المركب منها, وهذا لا يتعارض إطلاقاً مع كون الله أقانيم.

نوع وحدانيته

ونحن نسأل أي نوع من الوحدانية هي وحدانية الله؟ هل هي وحدانية مجردة أو مطلقة؟ لو كان كذلك فثمة سؤال يفرض نفسه. ما الذي كان يفعله الله الواحد الأزلي قبل خلق السماء والأرض والملائكة والبشر. في الأزلية إذ لم يكن أحد سواه, ماذا كان يفعل؟ هل كان يتكلم ويسمع ويحب. أم كان صامتاً وفي حالة سكون؟

إن قلنا إنه لم يكن يتكلم ويسمع ويحب, إذا فقد طراً تغيير على الله لأنه قد تكلم إلى الأباء بالأنبياء وهو اليوم «سامع الصلاة», إذ هو السميع المجيب كما إنه يحب إذ إنه الودود, نعم إن قلنا إنه كان ساكناً لا يتكلم ولا يسمع ولا يحب ثم تكلم وسمع وأحب فقد تغير, والله جل جلاله «منزه عن التغيير والتطور لأنه الكامل أزلاً وأبداً».

وإن قلنا إنه كان يتكلم ويسمع ويحب في الأزلي, قبل خلق الملائكة أو البشر فمع من كان يتكلم وإلى من كان يستمع, ومن كان يحب؟

إنها حقا معضلة حيرت الفلاسفة. وجعلتهم يفضلون عدم الغوص في غمارها. أما الكتاب المقدس, فلأنه كتاب الله الذي فيه أعلن لنا ذاته فلقد عرفنا منه أن وحدانية الله ليست وحدانية مجردة أو مطلقة, بل هي وحدانية جامعة مانعة.

(جامعة لكل ما هو لازم لها ومانعة لكل ما عداها).

وبناء على ذلك فإن الله منذ الأزل هو كليم وسميع, ومحب ومحبوب ناظر ومنظور دون أن يكون هناك شريك معه ودون احتياجه جلت عظمته إلى شيء أو شخص في الوجود.

هذا وكلنا نعلم أن الله يتصف بصفات كثيرة تفوق العقول والإدراك فهو يتصف بأنه السميع «الغارس الأذن ألا يسمع» (مزمور 9:94).

والبصير «الصانع العين ألا يبصر؟» (مزمور 9:94).

والكليم «فما أكثر تكرار القول «قال الرب» (يوحنا 17:21).

والعليم «بكل شيء» (يوحنا 17:21).

وله الإرادة (لوقا 22:42).

والمحب (1 يوحنا 4:16).

مع ملاحظة عدم وجود أي تناقض بين الوجدانية والأقانيم، لأن الله واحد في جوهره وجامع في أقانيمه ووجدانيته جامعة لكل ما هو لازم لوجود صفاته بالفعل، سواء كانت هناك خليفة أو لم تكن، دون أن يكون هناك أي تركيب في ذاته أو شريك معه، لأن هذا لا يتوافق مع كماله واستغنائه بذاته عن كل شيء في الوجود. وهي وجدانية أيضا مانعة لكل ما عداه. ولا يجوز تشبيهه الله في أقانيمه بأية تشبيهات بالمرّة كالشمس وغيرها لأنها كلها محدودة ومركبة، وهو بنفسه يقول «بمن تشبهون الله، وأي شبه تعادلون به» وأيضا يقول «فبمن تشبهونني فأساويه يقول القدوس» (إشعيا 40: 25).

كما إن الأقانيم هي ليست ذاته وصفاته كما يظن البعض، لأن الصفات معانٍ أي ليست لها وجود واقعي فلا يقال مثلا إن الله كان يكلم صفاته في الأزل ويسمعها ويصبرها ويحبها، أو إن صفاته كانت تكلمه وتبصره وتحبه لكنها وجدانية خاصة بذاته (ذات واحدة) جوهر واحد لا هوت واحد ولكن ثلاثة أقانيم في وجدانية بغير امتزاج، ولا يمكن أن تنفصل أو تتجزأ مع تميزها.

وكل أقنوم هو الله الأزلي، الأبدي، الغير محدود، ولا يتحيز بمكان أو زمان، العليم، المرید، القدير، السميع، الكليم، البصير لا يتغير ولا تأخذه سنة ولا نوم، لا بدء له كلى الكمال.

وكلمة أقنوم هي كلمة سريانية، تطلق على كل من يتميز عن سواه مع عدم الانفصال أو الاستقلال. مع ملاحظة أنه يوجد فارق بين كلمتي «أقانيم» و «أشخاص» المستعملة في لغتنا العربية:

الأشخاص: ذوات منفصلة إحداهما عن الأخرى.

أما الأقانيم: ذات واحدة هي ذات الله الذي لا شريك له ولا نظير.

الأشخاص: وإن كانوا يشتركون في الطبيعة الواحدة إلا أنه ليس لأحدهم ذات خصائص أو صفات أو مميزات الأخر،

أما الأقانيم فمع تميزها عن بعضها ففي الأقتومية هم واحد في الجوهر بكل خصائصه وصفاته ومميزاته لأنهم ذات الله الواحد.

نعم هذا هو إعلان الله عن ذاته وهو إعلان يسمى فوق الفهم الطبيعي وأسمى من العقل لكن لا يتعارض معه، فقط يتطلب الإيمان ووصول النور الإلهي إلى القلب.

الفصل الثاني

وجدانية الله في العهد القديم

إن العهد القديم كتب باللغة العبرية وترجم إلى اللغات التي من ضمنها العربية. ولا يوجد في اللغة العبرية (اللغة الأصلية لكتاب العهد القديم) استعمال صيغة الجمع للدلالة على التعظيم كما هو في اللغة العربية.

لذلك فالمملوك في العهد القديم عندما يتكلمون عن أنفسهم يستخدمون صيغة المفرد وليس الجمع. مثل فرعون (تكوين 47: 41) ونبوخذنصر (دانيال 4: 4) والله نفسه تكلم في بعض المواضع عن ذاته بصيغة المفرد فاستخدم الضمير أنا وليس نحن (تكوين 21: 15، إشعيا 6: 45).

من هذا يتضح أن صيغة الجمع المستعملة مع اسمه في بعض الآيات لا يراد بها (التعظيم)، بل التعبير عن وجدانية الله الجامعة.

1 - في (تكوين 1: 1) «في البدء خلق الله السموات والأرض» والعارفون للعبرية يعرفون أن لفظ الجلالة (الله) في الأصل العبري هو «ألوهيم» وهي جمع للكلمة «إيلوه» وهذا للدلالة على أن وجدانية الله هي وجدانية جامعة. وهذا هو الاسم الذي عرف به تعالى في بدء الخلق وأثناء الخلق «ألوهيم» ويراد به الله في ذاته أو الله في علاقته بالخلقة.

2 - قبل أن يخلق الإنسان «قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تكوين 26: 1) ولاحظ كلمة نعمل، صورتنا، كشبهنا. هنا نلاحظ الوجدانية الجامعة مع أن الفعل «قال» يأتي في صيغة المفرد.

3 - بعد أن خالف آدم وصية الله «قال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا للخير والشر» (تكوين 22: 3) فهنا لم يقل، قد صار مثلنا «للتعظيم»، ولكن «كواحد منا» للدلالة على أنه جامع.

4 - وعندما شرع سكان الأرض في شرهم أن بينوا مدينة ويرجا رأسه في السماء ويصنعوا لأنفسهم اسما لئلا يتبددوا على وجه كل الأرض (تكوين 4:11) قال الرب «هلم نزل ونبيل هناك لسانهم» (تكوين 7:11) وكلمة هلم تعني «هيا بنا أو دعنا». وهذا يدل على تبادل الحديث. ت ترى من هو هذا الذي كان الله يتكلم معه؟ ونحن نعلم أن الله واحد لا شريك له.

وهذا كله يدل على أن الحديث قد حدث بين الله وذاته وحدها وهذا يدل على أن الله جامع في وحدانيته.

5 - عندما تراءى الرب لإشعيا في سنة وفاة عزي الملك يقول إشعيا: «ثم سمعت صوت السيد قائلا من أرسل ومن يذهب من أجلنا فقلت هاأنذا أرسلني» (إشعيا 6:8). ولاحظ كلمة «من أجلنا» بصيغة الجمع وكلمة «من أرسل» بصيغة المفرد، ليس المقصود التعظيم ولا المقصود أن يرسل رسولا من البشر لأجله ولأجل الملائكة معا، بل من أجله وحده لأن البشر يجب أن يرجعوا إليه دون سواء وهذا دليل آخر على وحدانية الله الجامعة.

علاوة على ما سبق، توجد آيات تدل على أن الله أكثر من أقنوم. على سبيل المثال:

1 - في القضاء على سدوم وعمورة بعد أن كثر شرهم على الأرض قيل «فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء» (تكوين 19:24) لنلاحظ أن المتكلم «وهو الرب» قد أمطر كبريتا ونارا من عند الرب، مع ملاحظة أن الممطر والممطر من عنده ليس صفة بل أقنوماً.

2 - في (مزمور 6:45 - 7) «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور قضيب استقامة قضيب ملكك. أحببت البر وأبغضت الإثم من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك». لاحظ هنا أن الله يمسح الله (1) وبما أن الماسح والممسوح واحد وهو الله فهذا يدل على أن الله ليس أقنوماً بل أقانيم.

ولاحظ أن المخاطب في هذه الآية هو «أقنوم الابن» (عبرانيين 8:1 - 10) حال كونه متجسداً ويعتبر الله إله، ليس باعتبار أقنوميته لكن باعتبار ناسوته الذي ظهر فيه، لأنه باعتبار أقنوميته هو الله وفي هذا الوصف لا إله له إطلاقاً، أما من ناحية ناسوته فكان إنساناً يدعو الله إلهاً له وهذا لا يعني أن المسيح كان شخصين بل شخصاً واحداً وهو الله المتجسد. كما سندرس فيما بعد بالتفصيل.

3 - وفي مزمور 110:1 يقول داود بالوحي «قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» وهنا ترى الرب يخاطب الرب وقد اقتبس الرب هذه الآية في حديثه مع الفريسيين وسؤاله لهم قائلاً:

«ماذا تظنون في المسيح ابن من هو. قالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح ربا قائلاً، قال الرب لربي، فإن كان داود يدعوه بالروح ربا فكيف يكون ابنه، فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة» (متى 22:41 - 46). أما الإجابة فواضحة فهو من حيث الأقنومية هو رب داود ومن حيث تجسده وظهوره في العالم هو «ابن داود» لأنه من نسله حسب الجسد ولذلك في (رؤيا 22:16) «أصل وذرية داود».

4 - في سفر إشعيا يقول الرب «اسمع لي يا يعقوب وإسرائيل الذي دعوته أنا هو. أنا الأول وأنا الآخر... والآن السيد الرب أرسلني وروحه» (إشعيا 48:12، 16) لنلاحظ هنا ونمعن الملاحظة (لأنها من أوضح الآيات في العهد القديم عن الثالوث الأقدس).

«أنا الأول والآخر» أي الأزلي قد أرسل بواسطة اثنين هما «السيد الرب وروحه» وبما أن المرسل والمرسل، ليسوا كائنات مختلفة، بل كائناً واحداً هو «الله» لأنه هو الأول والآخر وهو السيد الرب، وروحه ليس كائناً آخر بل هو عين ذاته. فهذا يدل على أنها أقانيم الله الواحد. ووحدانيته «جامعة» والمقصود بكلمة إرسال هو مجرد الظهور بين الناس لإجراء عمل من أعمال اللاهوت، وليس إرسال أقنوم لآخر معناه: أن له أفضلية عليه، بل يقصد بها التوافق في المهمة المرسل من أجلها.

5 - في سفر هوشع 7:1 يقول الرب «وأما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بالرب إلههم» لنلاحظ أن المتكلم هنا هو الرب ويقول إنه يخلص شعبه بمن يدعوه «الرب إلههم» وبما أنه لا يوجد إلا إله واحد. وهنا الرب والإله الواحد متكلم ومتكلم عنه فهذه الآية تدل على أن الله أكثر من أقنوم واحد.

6 - في (تكوين 1:1، 2) «في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه».

من هذه الآية يتضح أن اثنين قد اشتركا في الخلق وهما الله، وروح الله. وواضح أنهما ليسا اثنين بل واحداً وهو الله وذلك لأن الله لا تركيب فيه ووحدته هو الخالق والباعث للحياة في كل كائن حي.

7 - في سفر (المزامير 6:33) يقول «بكلمة الرب صنعت السموات» وفي (مزمو 30:104) «ترسل روحك فتخلق» ومن هاتين الآيتين يتضح أن اثنين قاما بالخلق وهما «كلمة الرب» و «روح الرب». إلا أنهما ليسا اثنين بل واحدا وهو الله في جوهره.

8 - في سفر الأمثال (4:30) في كلام أجور «من ثبت جميع أطراف الأرض ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت» من هنا نلاحظ أن اللاهوت متميز في أقانيمه وأن كلمة «ابن» ليس المقصود بها المعنى الحرفي بل المعنى الروحي الذي يتوافق مع روحانية الله وخصائصه الأخرى. وسندرس هذا فيما بعد.

من الشرح السابق كله يتضح لنا:

1 - أن الله واحد, ولكن وحدانيته «جامعة مانعة», وأن الله أقانيم ثلاثة: الأب, والابن, والروح القدس في وحدة لا تقبل التجزئة ولا الانفصال, مع تميز كل أقنوم في عمله, وله ذات صفات الأقنوم الآخر وهو الله بذاته.

2 - أن عقيدة التثليث والتوحيد ليست موجودة في المسيحية فقط فتعتبر بدعة, لكن كما رأينا فهي موجودة في أسفار العهد القديم.

الفصل الثالث

وحدانية الله في العهد الجديد

توجد في العهد الجديد آيات كثيرة تشهد أن وحدانية الله هي وحدانية جامعة مانعة, أو بتعبير آخر أن الله ليس أقنوما بل أقانيم ونذكر بعض هذه الآيات:

(1) مشهد المعمودية «هو أول إعلان صريح للتثليث» فعندما صعد المسيح (الابن) من الماء نزل الروح القدس مثل حمامة وأتى عليه صوت الأب قائلا: «هذا هو ابني الوحيد الذي به س سررت» (متى 3:16, 17, مرقس 1:9 - 11, لوقا 3:21 - 22).

(2) في إرسالية الرب لتلاميذه قبل صعوده قال «فأذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس» (متى 28:19) لاحظ أنه لم يقل بأسماء, لكن باسم, وهذا يدل على أن الأقانيم ليسوا كائنات ثلاثة, بل كائنا واحدا, الله لا سواه الذي لا شريك له ولا تركيب فيه, هو بذاته ثلاثة أقانيم, الأب والابن والروح القدس.

3 - في إنجيل (يوحنا 14:16, 17) «وأنا أطلب من الأب فيعطيك معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم». وأيضا في (يوحنا 15:26) «ومنى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي».

4 - في (2كورنثوس 13:14) يقول «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم».

وفي (1 بطرس 1:1 - 2) «إلى المختارين بمقتضى علم الله الأب السابق في تقديس الروح للطاعة ورش دم يسوع المسيح».

بالإضافة إلى هذه الشواهد: لوقا 35:1 أعمال 4:29 - 31 1كورنثوس 12:4 - 6 أفسس 4:4 - 6 عبرانيين 9:10 - 15 يهوذا 20, 21 رؤيا 4:1, 5, 4:1 غلاطية 4:6 أفسس 2:18 تيطس 3:4 - 7 يوحنا 4:10 1 يوحنا 5:7

مما سبق يتضح لنا أن الأقانيم هم ذات الله, وليسوا كائنات غيره أو معه وهذا يرينا أن الكتاب المقدس يعلن لنا بالتثليث وأن: الله لا شريك له. الأقانيم هم عين الله ذاته, وليسوا أجزاء أو عناصر فيه أو صورا أو أشكالا له.

إنه لا تركيب فيه, لذلك لا يفصل أحدهم عن الآخر بأية حال من الأحوال لأنه لو كان الله أقانيم مركبة لشابه الإنسان, الذي في موته يتعرض للتفكك والتغيير. إذ تخرج روحه من جسمه. وحاشا لله فالأقانيم ليسوا أجزاء أو عناصر في الله, بل هم عين ذاته وذاته واحدة لا تتعرض للتجزئة أو الانقسام أو التغيير في حالة ظهور أحد الأقانيم في مكان. وكذلك لأن اللاهوت لا يتحيز بمكان أو زمان لذلك لا ينحصر في حيز خاص, وقد أشار الرب أيام جسده على الأرض إلى هذه الحقيقة حينما تحدث عن نفسه إذ قال:

«وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يوحنا 3:13) .

الخلاصة:

الله واحد وحدانية جامعة. أقانيم الله غير قابلة للتجزئة والانفصال على الإطلاق. فمنذ الأزل إلى الأبد لا ينفصل أقنوم عن الأقنومين الآخرين بأية حال من الأحوال. وقد وصف القديس أنتاسيوس وحدانية الأقانيم هذه فقال: (إنها اتحاد بلا اختلاط وتمييز بلا انفصال) وحقاً إنها كذلك.

الباب الثاني

الله وثالوث أقانيمه

بعد أن رأينا في التأملات السابقة أن الله واحد في جوهره. لكنه أيضاً ثلاثة أقانيم متميزة في وحدانية بلا انفصال أو تجزئه.

سوف نتحدث في هذا الفصل عن الأقانيم

الفصل الأول

أقنوم الأب

الأب تنطق بالمدة وليس بالهمزة ولنلاحظ أن:

1 - الأب هو، الأب منذ الأزل وبالتالي فالابن هو الابن منذ الأزل لأنه ليست هناك أبوة إلا معها بنوة، وإذ كان الأمر هكذا، فإن الابن لا يكون مولوداً أو مخلوقاً من الأب، بل واحداً معه في اللاهوت بكل صفاته وطبيعته.

2 - لا يراد بأقنوم الأب «أب» بالمعنى الحرفي الجسدي أي إنه ادعى بهذا الاسم لأنه أنجب أقنوم «الابن» أو لأنه ذو فضل عليه، أو لأنه سابق له في الزمن. كلا إذ يعلمنا الكتاب المقدس أن الأب واحد مع «الابن» في اللاهوت.

فقد قال الابن «أنا والأب واحد» (يوحنا 10:30) . وعندما سأله تلميذه «فيلبس» «يا سيد أرنا الأب وكفانا» قال له يسوع «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس. الذي رأيته رأيت الأب، فكيف تقول أنت أرنا الأب. ألسنت تؤمن أنني أنا في الأب والأب في» (يوحنا 8:14-10).

وقال للتلاميذ: «صدقوني أنني في الأب والأب في» (يوحنا 14:11) .

فهذه الردود التي نطق بها الرب لا تدع مجالاً للشك. بل من خلالها نرى وحدة الأب والابن.

هناك فرق بين «الوالد» والأب. فما أكثر الذين يقال عنهم «والدون». لكنهم مجردون من كل معاني الأبوة، فالتوالد ظاهرة جسدية، بينما الأبوة حالة روحية لذلك لم يطلق على أقنوم الابن ولو مرة واحدة اسم «ولد الله» «Child Of God» كذلك لم يطلق على أقنوم الأب ولو مرة واحدة اسم «الوالد» بل يطلق على الأول اسم «الابن» «Son Of God» والثاني دائماً اسم «الأب».

ولم تطلق عليهما هذه الأسماء عندما ولد أقنوم الابن من العذراء مريم أو في أي زمن من الأزمنة السابقة للولادة فحسب، بل أطلق على كل منهما اسمه الخاص به منذ الأزل السابق لكل زمن، لأن الأب لم يكن سابقاً للابن لأن الله روح ولأنه لا يلد ولا يولد ولا شريك له أو نظير وغير متغير، وأنه ليس قبله أو بعده إله، وهذا ما يدل على أن الأبوة حالة روحية تتوافق مع روحانية الله والمقصود بها (المحبة الباطنية السامية) وهذا يليق بالله وحده لأن محبته لا يحدها حد، وهي طبيعته، ولذلك فمحبة الأب والابن أزلية. قال الرب يسوع مرة بصفته «الابن».. عندما كان على أرضنا بالجسد للأب:

«لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يوحنا 17:25) وبهذا يكون قد كشف لنا سرا من أسرار أقانيم اللاهوت. المحبة التي كانت في الأزل عاملة ومتبادلة بين الأقانيم، ولذلك لا تسند المحبة في الكتاب المقدس إلى أقنوم واحد بل إلى كل الأقانيم أو بمعنى آخر إلى الله ذاته. ففي (1 يوحنا 4:8) «الله محبة» ولذلك «الأب» يحب «الابن» و «الابن» يحب «الأب» (يوحنا 14:31).

والروح القدس هو روح المحبة (رومية 2، 15:30 تيطس 1:7).

وتبادل المحبة دليل على التوافق التام بين الله وذاته.

إن الوحي يدعو أحد الأقانيم بالأب. هذا الاسم الذي يظهر كل معاني المحبة في الله، ويدعو أقنوماً آخر بالابن الاسم الكريم الذي يعبر عن هدف واتجاه المحبة في اللاهوت منذ الأزل والذي عن طريقه يمكن إعلان هذه المحبة في ملء الزمان للبشر.

فإن كلا من الأبوة والبنوة هي نسبة إلهية أزلية روحية، ليس لها نظير. ويدعو الوحي أقنوماً آخر بالروح القدس أو روح المحبة (رومية 15:30) لأنه مجرى محبة اللاهوت وحاملها ولذلك فإن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بواسطة (رومية 5:5).

3 - إن الذين يؤمنون إيماناً حقيقياً بالمسيح يطلق عليهم «أبناء الله» ومن حقهم أن يخاطبوه يا أبانا (1 يوحنا 3:1، غلاطية 4:6).

لكن ليس معني هذا أنهم قد أصبحوا واحداً مع الابن في أقنوميته بل يعتبرون فقط أولاد الله، بسبب إيمانهم القلبي بالمسيح واتحادهم الروحي به، على أساس النعمة وصيرورتهم بالتبني أبناء (يوحنا 12:1، أفسس 1:5) أما المسيح فهو ابن بجوهره وحقه الذاتي غير المكتسب. ولذلك حتى بعد الإيمان نعتبر خليفة الله وعبيده وهو بالنسبة لنا خالقنا وسيدنا.

4 - وهناك إشارات في العهد القديم عن كون الله أبانا مثل (إشعيا 64:8، ملاخي 1:6) مع ملاحظة أن معرفة قديسي العهد القديم لم تصل إلى معرفة (الله) كما وصلت معرفتنا نحن له عن طريق المسيح (يوحنا 17:6 - 26).

لذلك جميعهم كانوا يشعرون بالرهبة من حضرته بسبب شعورهم بخطاياهم المتعددة ونقائصهم، لكن في العهد الجديد على أساس كفارة المسيح زالت المخاوف وبفضل عمل الروح القدس يحصلون على حياة روحية تؤهلهم لذلك. الله باعتباره (الأب) «باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح. كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة. إذ سبق فعيننا للتبني ببسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته» (أفسس 1:3 - 5).

وهو «الذي أهلنا لشركة ميراث القديسين في النور» (كولوسي 1:12).

«وقد ولدنا ولادة روحية لرجاء حي» (1 بطرس 3:1).

«ودعانا إلى مجده الأبدى في المسيح يسوع» (1 بطرس 5:10).

الفصل الثاني

أقنوم الروح القدس

يظن البعض أن الروح القدس ما هو إلا مؤثر إلهي أو قوة إلهية يعطيها للبشر، ويظن البعض الآخر وهم شهود يهوه (الذين لا يؤمنون بشخصية الروح القدس) أنه ريح ويشددون على أن لفظ «ريح» هي الترجمة الأصح.

لكن الروح القدس ليس كذلك، إنه أقنوم إلهي مثل الأقنوميين الآخرين ولا يسمى بالروح القدس لأنه يتميز عنهما بروحانية الجوهر. كلا لأن للأقانيم جوهرًا واحدًا، كما رأينا في الكلام السابق ولقد أعلن الوحي لنا أن الله (بأقانيمه) هو روح (يوحنا 4:24).

وهذا الاسم يعبر عن قيامه بأعمال اللاهوت روحياً أو بطريقة غير ظاهرة. لذلك فالكتاب المقدس يذكر له بكل وضوح ما يتميز به من مقومات الشخصية فينسب له القيام بأعمال الشخص العاقل، المريد، القادر.

ففي (سفر القضاة 13:25) يقول عن شمشون: «وابتداً روح الرب يحرکه في محلة دان».

وفي (مزمو 10:143) يقول داود «روحك الصالح يهديني».

وفي (إشعيا 16:48) «الرب أرسلني وروحه».

وفي (إشعيا 14:63) «روح الرب أراحهم».

وقال الرب يسوع عنه «الروح القدس يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يوحنا 14:26) «وهو يشهد لي» (يوحنا 15:26) «ويبكت العالم» (يوحنا 16:8) «وهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية. ذلك بمجدي لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يوحنا 16:13 - 15).

وفي أعمال (29:8) «فقال الروح لفيلبس تقدم».

وفي (1 تيموثاوس 1:4) «الروح يقول صريحا» وأيضا «فقال لي الروح» أن أذهب» (أعمال 12:11).

وفي قول الرسول بطرس لحنايا «لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس. أنت لم تكذب على الناس بل على الله» (أعمال 3:5, 4).

إن هناك تميزا بين الروح القدس كأقنوم إلهي عن الشخصيات البشرية بما له من الرأي الإلهي الشخصي والإرادة الإلهية اللذين قد يتفق فيهما وقد يختلف فيهما مع البشر:

«لأنه قد رأي الروح القدس ونحن» (أعمال 18:15) وقال الروح القدس «افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه فهذان إذ أرسلنا من الروح القدس انحدرنا» (أعمال 2:13 - 4) «ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسما لكل واحد بمفرده كما يشاء» (1 كورنثوس 11:12).

من الآيات السابقة نلاحظ أن الروح القدس متميز، وأيضا له رأيه وإرادته المنفقة مع رأي وإرادة المؤمنين، أما عن عدم اتفاقه معهم في الرأي والإرادة فواضح من الشواهد التالية التي تثبت أن له الرأي الحر والإرادة المستقلة.

في (أعمال 6:16 - 7) «منعهم الروح القدس أن يتكلموا بالكلمة في آسيا فلما أتوا إلى ميسيا حاولوا أن يذهبوا إلى بيتينية فلم يدعمهم الروح».

وليس ذلك فقط. لكنه مميز عن أقنوم الأب والابن معا كالله الواحد وفي قوله «وروح الله يرف على وجه المياه» (تكوين 1:2).

- وفي (متى 20:10) «روح أبيكم هو الذي يتكلم فيكم». هنا يظهر تميز الرب يسوع عن الأب.
- وفي (غلاطية 6:4) «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخا يا أبا الأب». وهنا نلاحظ تميزه عن الابن.
- وفي (2 كورنثوس 14:13) نلاحظ تميزه عن الأب والابن معا في القول: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم».

وهناك الكثير من الآيات التي تتكلم عن لاهوت الروح القدس نذكر البعض منها في (أعمال 3:5, 4) قال بطرس الرسول لحنايا «لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس. أنت لم تكذب على الناس بل على الله».

- وفي (عبرانيين 14:9) نرى أن الروح القدس أزلي «بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب».
- وفي (1 كورنثوس 10:2) «يفحص كل شيء حتى أعماق الله».
- وفي (يوحنا 14:26) «يعلمكم كل شيء».
- وفي (يوحنا 13:16) «يخبركم بأمر آتية».
- وفي (إشعيا 40:13) «من قاس روح الرب».
- وفي (أيوب 4:33) «روح الله صنعني ونسمة القدير أحيتني».

- وفي (2بط 1:21) «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس».
- وفي (رومية 8:11) «سيحيي أجسادكم المائتة بروحه الساكن فيكم».
- وفي (يوحنا 3:6) «المولود من الروح هو روح». وفي (تيطس 3:5) «غسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس».
- وفي (1 بطرس 1:2) «تقديس الروح للطاعة».

من الآيات السابقة يتضح لنا أن الروح القدس:

أزلي، وفاحص، وعليم، ويعرف المستقبل، وموجود في كل مكان ولا يحد بحدود، خالق وصاحب الوحي ويحيي ويلد النفوس ويجدد ويقدر. وهذه الصفات والأعمال هي ذات أعمال وصفات الله. فهو أقنوم إلهي متميز عن الأب والابن كما أنه يطلق عليه:

- 1 - روح الحق (يوحنا 14:17) .
 - 2 - روح الحياة (رومية 8:2) .
 - 3 - روح المجد (1بطرس 4:14) .
 - 4 - روح الموعد القدس (أفسس 1:13) .
- وفي ذكر أنبياء العهد القديم عن لاهوت الروح القدس برهان آخر على التثليث فجاء عنه الآتي:
- 1 - كائن منذ الأزل قبل الخليقة (تكوين 2:1) .
 - 2 - الخالق لكل شيء (مزمور 104:3) (أيوب 4:33) .
 - 3 - الحاضر في كل مكان (مزمور 139:7-10) .
 - 4 - القادر على كل شيء (زكريا 4:6) .
 - 5 - هادي القلوب (مزمور 143:10) .
 - 6 - منير العقول (أيوب 32:8, خروج 31:3) .
 - 7 - محرك القضاة (قضاة 10:3, 13:25) .
 - 8 - المعلم (عدد 11:24-29, يوثيل 2:28, 29) .
 - 9 - القدوس (مزمور 11:51) .
 - 10 - السرمدى غير المحدود (إشعيا 40:13) .
 - 11 - الديان (تكوين 6:3, إشعيا 63:10) .

ومن هنا يتضح لنا أن الروح القدس له شخصيته المتميزة كأقنوم إلهي، وليس قوة أو ريحا .

الفصل الثالث

أقنوم الابن

لقد تكلمنا سابقا عن «الله» وقلنا إن الله واحد, ذات واحدة جوهر واحد لكن (ثلاثة أقانيم), وقلنا إن الأقانيم ليسوا أجزاء في الله وليس الله مركبا في ثلاثة أقانيم, لكن الله واحد وكل أقنوم هو الله وليس جزءا من الله.

الآب هو الله والابن هو الله, والروح القدس هو الله. جوهر واحد ولكن أقانيم ثلاثة, متحدون غير منفصلين ولكن متميزون عن بعضهم, متحدون في اللاهوت وفي الصفات الإلهية ولكن متميزون في بعض أعمالهم.

يقول قائل إن هذا فوق العقل, هذا صحيح لأن الله فوق العقل ولا بد أن يكون هكذا لأننا نعتقد أن الله لا يكون على قدر العقل أبدا وإلا لا يكون هو الله.

الصنم يعمل الإنسان على قدر عقله, على قدر ما يتصور من صفات يصنعها في الصنم, أما الله فغير محدود, ولكن العقل محدود, ولذلك فالله فوق العقل لكنه ليس ضد العقل.

(ولقد تكلمنا عن أقنوم الآب وأقنوم الروح القدس. وأما الآن فلنتكلم عن أقنوم الابن:

يظن البعض أننا كمسيحيين عقيدتنا في كلمة «الابن» أنه قد جاء بالتزاوج, أو جاء عن طريق الإنجاب بواسطة الآب, أو لأنه أحدث منه زمانا أو لأنه أقل منه مقاما, لذلك أطلقنا عليه «ابن الله» ولذلك يتهموننا بأننا قد جدفتنا على الله وأشركنا به. وهم بكل أسف لم يعرفوا معني كلمة (ابن الله).

فنحن:

لا نؤمن إطلاقا بما سبق, ولم يرد ذلك في كتاب الله المقدس بعهديه.

بل إن ما جاء في الكتاب المقدس عنه ينص على أن الله روح لا أثر للمادة فيه, لم يلد ولم يولد وأنه لا شريك له أو نظير, ولم يتخذ لنفسه زوجة أو صاحبة, وأنه لا يزيد ولا ينقص على الإطلاق.

كما يجب أن نلاحظ أن هناك دينونة رهيبه ستقع على كل من يتكلمون بالكلمات الصعبة على الرب يسوع (يهوذا 14, 15) والذي سوف يدينهم هو بنفسه. لأنه ديان الأحياء والأموات (أعمال 10:42).

ثم دعنا نفكر في الأمر سويا, لو كان المسيح ابن الله بالولادة أو بالإنجاب عن طريق الآب لكان الله في ثلوثه كالاتي (الآب والأم والابن) لأنه حيث الولادة فلا بد من الأمومة.

ولكن الله في ثلوثه لم يكن هذا بل هو (الآب والابن والروح القدس) ولذلك لا يمكن أن تكون بنوة الابن إلا البنوة الروحية وحدها.

ثم إنه لم يدع «ابن الله» لأنه خلق بواسطة الله, كما يدعى الملائكة والبشر لأنهم خلقوا بواسطته ولم يدع «ابن الله» لأنه أقرب الخلائق إلى الله بل هو «ابن الله» من الأزل قبل كل الأزمنة وقبل وجود أي مخلوق من المخلوقات (وأن الله أعلن ذاته بهذه الصورة) «الآب والابن والروح القدس».

فهو من هذه الناحية فريد في شخصه وفريد في مركزه وفريد في مهمته ولذلك جاء عنه في الوحي أنه:

«ابن الله الوحيد» (يوحنا 1:18), (يوحنا 3:16).

أي الذي ليس له نظير في بنوته لله وشخص لا نظير له في بنوته لا يكون ملاكا أو إنسانا أو مخلوقا, لأن كل واحد من هؤلاء ليس وحيدا بل له نظير.

ثم إن الاصطلاح «ابن الله» ليس لقباً للمسيح بل هو اسمه بعينه (يوحنا 3:18) بينما الاصطلاح «أبناء الله» مجرد لقب للملائكة والبشر يراد به الإشارة إلى علاقة من العلاقات أو صفة من الصفات.

أما الاسم فيراد به التعبير عن الشخصية نفسها. إن بنوة الملائكة لله ترجع إلى كونهم مخلوقين منه مباشرة فهم أبناء بالخلق. أما بنوة المؤمنين فمن باب النعمة وليس من باب الاستحقاق، لكن بنوة المسيح حق من حقوقه الذاتية. لذلك:

لا يجوز الخلط بين بنوة المسيح وبنوة الخلائق بأي وجه من الوجوه. ثم ينبغي أن نلاحظ أن الكتاب المقدس لم يقل عن المسيح «ولد الله» بل ابن الله. والفروق بين الاصطلاحين كثيرة نذكر منها:

1 - قد يكون هناك والد مجرد من كل معاني الأبوة وقد يكون هناك شخص فيه كل معاني الأبوة، دون أن يكون له أولاد مولودون منه، فالتوالد إذا حالة جسدية أما الأبوة فحالة روحية.

2 - الاصطلاح «ولد الله» يظهر بداية للمولود. وهذه البداية ابتدأت بالولادة، أما الاصطلاح «ابن الله» فله مدلولاته الروحية الخاصة التي سنتكلم عنها فيما بعد.

3 - الاصطلاح «ولد الله» يظهر عدم التساوي بين الوالد والمولود من حيث الأسبقية في الزمن فدائماً الوالد أكبر وأسبق من المولود، وهذا ما لا يتوافق مع الله في أقاليمه.

4 - الاصطلاح «ولد الله» يظهر أن المولود له محدوديته بالزمان والمكان، وهذا ما لا يتوافق مع المسيح الأزلي غير المحدود.

5 - الاصطلاح «ولد الله» يستلزم وجود أم وتزواج، وحاشا أن نقول عن الله هكذا، لأن الله منزّه عن هذه الأمور.

6 - الاصطلاح «ولد الله» يعلن عن تسيد شخص على الآخر، فالوالد دائماً له السلطان على المولود. ولكن أقاليم الله غير ذلك تماماً.

7 - الاصطلاح «ولد الله» يعطى التساوي بين المسيح «ابن الله» والخلائق الأخرى وهذا ما لم يكن على الإطلاق.

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن البشر يدعون أبناء الله بالخلق للدلالة على:

أ - أنه مصدر وجودنا، كما هو وارد في (تثنية 6:32) «أليس هو أباك ومقتنيك هو عملك وأنشأك» وفي (ملاخي 2:10) «أليس أب واحد لكننا أليس إله واحد خلقنا». وفي (1كورنثوس 8:6) «لكن لنا إله واحد الأب الذي منه جميع الأشياء ونحن له».

ب - أنه صاحب العناية بكل البشر كخلاتقه ولكن بصفة خاصة بالمؤمنين كما هو وارد في (مزمو 13:103) «كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خافيه». «أبو اليتامى وقاضى الأرمال الله في مسكن قدسه» (مزمو 5:68) وفي (متى 6:26) «انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالبحري أفضل منها» وفي (متى 10:29, 30) «أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون أبيكم وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة».

ج - ما علينا من واجب الخوف والطاعة كما هو وارد في (ملاخي 6:1) «الابن يكرم أباه والعبد يكرم سيده. فإن كنت أباً فأين كرامتي وإن كنت سيدياً فأين هيبتني قال لكم رب الجنود».

إن المؤمنين هم أبناء الله بالولادة الثانية والتبني كقول الوحي في (غلاطية 3:26) «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع». وفي (1يوحنا 12:1, 13) «وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله». وفي (أفسس 1:5) «إذ سبق فعيننا للتبني ببسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته» وعلى المؤمنين التجاوب مع هذه النعمة بالسلوك بالتدقيق، كقوله في (1بطرس 1:17) «إن كنتم تدعون أباً الذي يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد فسيروا زمان غربتكم بخوف» وفي (متى 5:16) «فليضي نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات».

ويجب أن نميز بين بنوة البشر لله على أساس الخلق، وبين بنوة المؤمنين لله على أساس الفداء، وبين بنوة المسيح الأزلية للأب فهو ابن الله الوحيد. ومدلول بنوته للأب مختلف تماماً فبينما يدعى البشر أبناء الله لأنهم من صنع يديه وخليقته العاقلة نجد المسيح يدعى ابن الله باعتباره الله المعلن في الجسد وخالق كل الأشياء، وبينما نجد المؤمنين يدعون أبناء الله على أساس الفداء، نجد أن المسيح هو الذي صنع الفداء وهو الذي أعطانا سلطاناً أن نصير أولاد الله (يوحنا 12:1).

وهذا التمييز واضح في كل الكتاب المقدس وإليك الأمثلة الآتية:

1 - في (متى 27:11) وفي (لوقا 22:10) «كل شيء قد دفع إلى من أبي. وليس أحد يعرف الابن إلا الأب. ولا أحد يعرف الأب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له». وفي (يوحنا 3:35) «الأب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده».

وفي (يوحنا 15:10) يقول «كما أن الأب يعرفني وأنا أعرف الأب». وهذه الأقوال لا يمكن أن تنطبق على أحد إلا على ابن الله الوحيد.

2 - وأيضا في (متى 17:3) في حادثة العمد «وصوت من السماء قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت».

وفي (مرقس 6:12, 8) ترد هذه العبارة عن الله «فإذ كان له أيضا ابن واحد حبيب إليه أرسله أيضا إليهم أخيرا قائلا : إنهم سيهابون ابني فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارج الكرم».

وفي (يوحنا 3:16) «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

في العبارات السابقة نلاحظ أنه الابن الحبيب الوحيد، وهذا ما لا يمكن أن يقال على آخر سواه.

3 - يظن البعض أن الاصطلاح «ابن الله» قد جاء عنه في الإنجيل فقط، لكن بالرجوع إلى التوراة نرى إشارات واضحة عن هذا الألقاب فقد جاء عنه في (مزمو 7:2) «أنت ابني» وفي سفر الأمثال (4:30) «من ثبت جميع أطراف الأرض. ما اسمه وما اسم ابنه إن عرفت؟» ومن الملاحظ في كلمة الله أن للمسيح بنوتين:

البنوة الأولى :

بنوة أزلية في اللاهوت قبل التجسد في هذا العالم والتي يعبر عنها في (مزمو 7:2) بالقول «أنت ابني»، قبل أن يقول «أنا اليوم ولدتك». لأنه لو كانت هناك بنوة واحدة بالولادة في الزمان لكان قد قيل «أنا اليوم ولدتك فأنت ابني» ولكن القول «أنت ابني» أولا يدل على أن المسيح ابن الله أزليا . كما أننا نلاحظ أن العبارات التي استخدمت في العهد الجديد تدل على ذلك، مثل أرسل، وظهر، وجاء، وخرج، كلها عبارات تدل على الوجود الأزلي قبل التجسد. وإليك بعض الأمثلة وإن كنا نتكلم بعد ذلك بالتفصيل عن أزليته:

في (غلاطية 4:4) «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة».

في (رومية 8:3) «أرسل الله ابنه في شبه جسد الخطية» (أي في جسد مشابه لجسدنا تماما . ولكن خال من الخطية)».

وفي (1تيموثاوس 3:16) «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد».

ولذلك لما تكلم إشعياء عن ولادته ثم ذكر اسمه قال: «ويدعى عجيبا مشيرا . إلهها قديرا (الله القدير) أبا أبديا (أبا الأبدية)» (إشعياء 6:9) .

ب - البنوة الثانية في الزمان عندما ولد في الجسد:

هذه البنوة المشار إليها في (مزمو 2) بالقول «أنا اليوم ولدتك». ويقول عنها في (إشعياء 6:9) «يولد لنا ولد».

وفي بداية بشارة متى ولوقا قصة ميلاده بالتفصيل. وهذه البنوة تختلف عن بنوة كل البشر والملائكة الله كمخلوقاته العاقلة وتختلف أيضا عن بنوة المؤمنين الروحية لله كمن أخذوا طبيعته الأدبية (يوحنا 3:29) .

أنا والأب واحد

في حديث الرب الوداعي مع تلاميذه في ليلة آلامه كشف لهم النقاب عن ذاته مباشرة إذ قال لهم «أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي» (يوحنا 14:21) أي آمنوا بي أنني الله وسرعان ما كشف لهم عن اتحادهم كأقنوم بالأب، لأنه كما رأينا سابقا ، أن الله واحد في جوهره لكن جامع في أقانيمه، وأن الأب هو الله والابن هو الله والروح القدس هو الله. لذلك.

قال لتوما ردا على سؤاله عندما قال للرب «لسنا نعلم أين تذهب. فكيف نقدر أن نعرف الطريق قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الأب إلا بي» (يوحنا 14:5, 6).

ثم يعلن بعد هذا الكلام مباشرة للتلاميذ عن الوحدة والاتحاد بينه وبين الأب, لنلا يتسرب لأذهان التلاميذ أن الأب شخص منفصل بذاته عنه, فيقول «لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضا. ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» (يوحنا 14:7). وبالرغم من هذا الإعلان فقد كشف التلاميذ عن عدم معرفتهم وقصر إدراكهم في سؤال فيلبس للرب وطلبه إذ قال على الفور للرب «يا سيد أرنا الأب وكفانا» (يوحنا 14:8) عندئذ رفع الرب الستار تماما لي عرف التلاميذ الوجدانية العجيبة والاتحاد العظيم للأقانيم فقال له «أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس. الذي رأيته فقد رأي الأب فكيف تقول أنت أرنا الأب. ألسنت تؤمن أنني أنا في الأب والأب في. الكلام الذي أكلمكم به, لست أتكلم به من نفسي لكن الأب الحال في هو يعمل الأعمال. صدقوني أنني في الأب والأب في. وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها» (يوحنا 14:9 - 11). وفي إنجيل يوحنا 29:10, 30 يقول الرب «أبي هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي» لكن لنلا يتسرب للأذهان أن الأب أعظم من الكل حتى من الابن, قال بعد هذا الكلام مباشرة «أنا والأب واحد» والضمير «أنا يأتي أولا قيل «الأب» أي إن الابن والأب واحد في العظمة الإلهية واللاهوت.

مع ملاحظة :

أنه لا يليق إطلاقا بأي مخلوق مهما كان أن يساوى نفسه بالأب لكن هنا أقنوم الابن لم ير مانعا أن يساوى نفسه بالأب, ولذلك اعتبره اليهود هنا مجدفا فتناولوا حجارة ليرجموه (يوحنا 10:31).

لذلك قال لهم يسوع «أعمالا كثيرة حسنة أريتمكم من عند أبي بسبب أي عمل منها ترجموني أجابه اليهود قائلين: لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف, فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها أجابهم يسوع أليس مكتوبا في ناموسكم أنا قلت إنكم إلهة. إن قال إلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب فالذي قد سه الأب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنني قلت إني ابن الله؟ إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي, ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فأمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الأب في وأنا فيه» (يوحنا 10:32 - 38). أي إن الطبيعة الإلهية واحدة في الاثنين وأن الاثنين واحد في اللاهوت رغم التميز في الأقنومية.

لذلك قيل «فطلبوا أيضا أن يمسكوه» (يوحنا 10:39).

سؤال (1) :

يقول غير المؤمنين بلاهوت المسيح إن العدد 34.. الذي نصه: «أجابهم يسوع أليس مكتوبا في ناموسكم أنا قلت إنكم إلهة» يرينا أن المسيح شخص إلهي بنفس المركز الذي يقال فيه عن البشر إنهم إلهة وذلك بناء على ما قاله بنفسه.

لكن بالتأمل في السبب في هذا القول ينتهي الادعاء. فهو قد قال في (يوحنا 10:30) «أنا والأب واحد» وهنا تظهر وحدانية الأب والابن, الأمر الذي فهمه اليهود وتناولوا بسببه حجارة ليرجموه وقالوا له وأنت إنسان تجعل نفسك إلها لذلك دفع المسيح تهمة التجديف بالكلام السابق في (ع 34, 35) وهذه الكلمات مأخوذة من (مزمو 6:82) حيث نرى الله متحدثا بها إلى القضاة باعتبار أنهم يحكمون بين الناس بحسب ناموس الله. ولكن مع مركزهم العظيم هذا فالله يقول لهم «مثل الناس تموتون» (مزمو 27:82) وأيضا قال الرب لموسى بالنسبة لهرون: «هو يكون لك فما وأنت تكون له إلها» (خر 13:4 - 16) هنا إلها «عن موسى» باعتبار أنه مصدر كلمة الله إلى هرون, فموسى يستقبل من الله الكلام. وكان بالنسبة لهرون «إلها» يعطيه الكلام الذي ينطق به الله.

لذلك قال المسيح لليهود ما معناه :

إذا كان كتابكم قد قال عن قضاتكم وهم بشر يموتون ويسقطون أنهم إلهة, ولكون هذا الكلام «كلام الله» الثابت, فلم تتهموا أساف كاتب هذه الكلمات بالتجديف. أليس بالأولى أن تقبلوا من قدسه الأب وأرسله إلى العالم؟ أو بعبارة أخرى:

إن كان هكذا بالنسبة لقضاتكم, فلماذا تقولون لي أنا المسيح الذي كرسني الأب وأرسلني لعمل الفداء إنني أجدف لأنني قلت إني ابن الله؟

وإذ جاز أن يقال عن قضاتكم وهم خطاة إذ يقول لهم: «حتى متى تقضون جورا وترفعون وجوه الأشرار» (مزمو 2:82) «إنهم إلهة».

فالابن الوحيد المعصوم من الخطأ الذي مسحه الأب من الأزل أتقولون له إنك تجدف لأنني قلت «أنا ابن الله».

لذلك يقول لهم المسيح «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فأمنوا لسبب الأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الأب في وأنا فيه» (يوحنا 10:37, 38).

وهنا يظهر الفرق بين تسمية القضاة وموسى «بأنهم آلهة» وبين شخصه المبارك الذي هو الله الحقيقي». فهؤلاء (القضاة وموسى) هم آلهة بالاسم فقط بمعنى رؤساء.

أما هو، تبارك اسمه إلى أبد الأبدين فهو الله الحقيقي فهو ليس نظيرهم بل هو الرب إلههم كما قيل عنه «اسجدوا له يا جميع الآلهة» (مزمو 7:97). الذي في أيام جسده وهو صبي صغير قيل عن المجوس عندما أتوا إليه إنهم: «خروا وسجدوا له ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا، ذهباً ولباناً ومرأ» (متى 2:11) هذا الذي قيل عنه وهو في مياه الأردن ليعتمد «وإذا السموات قد انفتحت له» (متى 3:16) وقيل عنه أيضاً «لأن الرب ملك كبير على كل الآلهة» (مزمو 95:3) كما أن كل الآلهة هم مقامون منه كقوله «بي تملك الملوك ويقضى العظماء عدلاً. بي تتراأس الرؤساء والشرفاء. كل قضاة الأرض» (أم 15:8, 16) وكلهم يخطئون. أما هو فهو المعصوم من كل خطأ.

أبعد هذا نسايه بهؤلاء الذين قيل عنهم إنهم «آلهة» أم نجله ونكرمه ونعبده لأنه ذات الله الذي يستحق أن يعبد.

ولكننا أيضاً نلاحظ أن المضادين للاهوت المسيح والمتكلمين عليه بالكلمات الصعبة، الذين دينونتهم لا تتواني وهاكهم لا ينعس (2 بطرس 3:2) لا يكفون عن الكلام بل بسوء فهم لبعض الكلمات الحلوة التي نطق بها الرب يسوع يضللون الكثيرين فإن اقتنعوا بالسابق لن يكفوا عن التضليل بل يقولون:

سؤال (2) :

إن كان الرب يسوع الله الابن قال «أنا والآب واحد» (يوحنا 10:30) فلماذا قال «لأن أبي أعظم مني» في (يوحنا 14:28)؟ وكيف تتنادون بمساواة الابن بالآب وها هو الابن يقول بلسانه لأن أبي أعظم مني؟

ونحن إذ نسمع هذا التساؤل لا يمكننا السكوت، لكننا نجيب على كل سائل ونحن نرجو الرجوع معاً إلى قرينة الكلام، لأننا لا يمكننا أن نفهم آية من الكتاب المقدس فهما سليماً بعيداً عن قرينتها. والآن ماذا قال المسيح في حديثه قبل أن يذكر هذه الكلمات السابقة؟

لقد قال «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضى إلى الآب» وعندما يقول المسيح «أمضى إلى الآب» هذا معناه. أنه لا يشير إلى لاهوته الذي يملأ السماء والأرض، والذي لم يترك حضن الآب قط (يوحنا 1:18)، بل يشير إلى «ناسوته» كالإنسان. ومن هذه الناحية فإن الآب أعظم من الابن في مركزه الذي أخذه كالإنسان بعد تجسده واتخاذ صورة ومركز العبد بالنسبة لأبيه (فيلبي 2:6 - 8). مع الملاحظة أنه في تجسده قد صار ليس أقل من الآب فقط «ولكن الذي وضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة» (عبرانيين 2:9) ويجب أن نلاحظ أن هذا لا يمس لاهوته إطلاقاً ولا يمس مساواته بالآب لأنه في ذات الأصحاب يقول «الذي رأيته فقد رأي الآب» (يوحنا 14:9) ويؤكد وحدانيته مع الآب في قوله «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً» (يوحنا 14:23) وفي سفر الرؤيا (5:13) نرى أن كل «خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الأبدين» وهكذا نعود إلى (يوحنا 10:30) لنسمع القول منه «أنا والآب واحد» مقدماً نفسه عن الآب دون أن يكون في هذا اختلافاً. فهما واحد في الجوهر منذ الأزل وإلى الأبد ثم إن مجيئه إلى العالم هو ظهور في العالم بهيئة واضحة دون أن يترك السماء لأن اللاهوت لا يتحيز بمكان بل موجود في كل مكان. ثم إنه لم يأت إلى العالم بإرادة الآب بالاستقلال عن إرادته بل جاء بمحض إرادته هو أيضاً.

لذلك قال في (يوحنا 16:27) «من عند الآب خرجت». وأيضاً في (فيلبي 2:6, 7) «أخلى نفسه أخذاً صورة عبد... وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» وهنا نرى إرادته ظاهرة، وأيضاً قد جاء بمحض إرادة الآب والروح القدس معاً. لذلك قال له كل المجد على لسان إشعياء: «والآن السيد الرب أرسلني وروحه» (إشعياء 48:16).

الفصل الرابع

وحدة الأقانيم مع تميز كل أقنوم

ومن جانب آخر نلاحظ أن الوحي الإلهي قد استخدم ما يدل على تميز الآب والابن كأقنومين لكن سرعان ما يستخدم ما يدل على الوحدانية من ألفاظ فمثلاً :

أ - في (1تسالونيكي 3:11) يقول الرسول بولس للمؤمنين في تسالونيكي «والله نفسه أبونا وربنا يسوع المسيح» وهنا أقنوما الأب والابن، ولكنه بعد ذلك «يهدي طريقنا» ولم يقل يهديان لأنهما واحد.

ب - وفي (2تسالونيكي 2:16) يقول «وربنا يسوع المسيح والله أبونا» وهنا أيضا أقنوما الابن والأب، ولكنه بعد ذلك يقول «يعزي قلوبكم» ولم يقل يعزيان لأنهما واحد.

كما يلاحظ في الآيتين السابقتين أنه في الأولى قدم الأب «الله نفسه أبونا عن الابن ربنا يسوع المسيح» وفي الثانية قدم الابن «وربنا نفسه يسوع المسيح عن الأب والله أبونا» لأنهما واحد في المقام واللاهوت.

3 - وفي (رؤيا 15:11) يقول «صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه» وهنا أيضا أقنوما الأب والابن ولكنه بعد ذلك يقول «فسيملك إلى أبد الأبدين» ولم يقل فسيملكان لأنهما واحد.

4 - وفي (رؤيا 6:20) يقول «هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم بل سيكونون كهنة لله والمسيح» وهنا نجد أقنومي الأب والابن ولكنه يقول بعد ذلك «وسيملكون معه ألف سنة» ولا يقول معهما لأنهما واحد.

5 - وفي (رؤيا 22:21) عن اورشليم السماوية يقول «ولم أر فيها هيكلًا لأن الرب القادر على كل شيء هو والخروف» وهنا نجد أقنومي الأب والابن ولكنه يقول بعد ذلك إنهما هيكلها «وليس هيكلهما» لأنهما واحد.

6 - وفي (رؤيا 3:22, 4) يقول أيضا «وعرش الله والخروف يكون فيها» وهنا نجد أقنومي الأب والابن لكن عرشا واحدا وأيضا يقول بعد ذلك «وعبيده يخدمونه» ولا يقول «وعبيدهما يخدمونهما» لأنهما واحد ثم يقول أيضا «وهم سينظرون وجهه واسمه على جباههم» ولا يقول وهم سينظرون وجهيهما واسماهما على جباههم لأنهما واحد.

ولا يفوتنا أن نقول كوحدة الابن هذه مع الأب مع تميزه عنه، هكذا هي وحدته أيضا مع الروح القدس مع تميزه عنه. ففي (رؤيا 2:18) بعدما يقول «هذا يقوله ابن الله» يختم في عدد 29 من نفس الأصحاح بالقول:

«من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس».

وكوحدة الابن مع الروح مع تميزه عنه هكذا هي وحدة الأب مع الروح مع تميزه عنه لذلك كان الرسل في صلاتهم في (أعمال 4:24 - 27) يقولون «أيها السيد أنت هو الإله القائل بقم داود فتاك» لكن داود نفسه يقول في (2صم 2:23) «وروح الرب تكلم بي وكلمته على لساني» ومن الكلام السابق نلاحظ:

وحدة الأقانيم الأب والابن والروح القدس كالله الواحد مع تميز كل منهم لذلك نلاحظ وحدة الروح القدس مع الأب كالله الواحد في تسميته «روح أبيكم» (متى 10:20) في حين يعلن تميزه عنه كأقنوم بالقول في نفس العبارة: «هو الذي يتكلم فيكم».

وتعلن كذلك وحدته أيضا مع الابن كالله الواحد بتسميته: «روح الله» في القول «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم» (غلاطية 4:6) في حين يعلن تميزه عنه كأقنوم بقول الرسول عنه في نفس العبارة «صارخا (هو) يا أبا الأب».

الفصل الخامس

مدلول الاصطلاح «ابن الله» ومعانيه

تكلمنا فيما سبق عن الله، ووحدايته وأقانيمه. لكن مجرد ذكر اسم «ابن الله» يجعل أفكار الناس تنصرف نحو العائلة البشرية. فيتصورون أن الابن مولود من الأب وأن الأب أكبر من الابن وهذا التفكير غير صحيح على الإطلاق، لأنه لا توجد ولادة في اللاهوت، وأيضا لا اشتقاق أي ليس الابن مشتقا من الأب.

سؤال (3) :

ما المقصود من الاسم المسيح «ابن الله»؟

إنه يعني مدلولات روحية تذكر البعض منها, لأننا لا نستطيع أن نلم بكل معاني هذا الاسم العجيب الفائق الإدراك لأنه «ليس أحد يعرف الابن إلا الأب» (متى 27:11):

1 - المدلول الأول ... المحبة :

لذلك جاء في (يوحنا 3:35, يوحنا 5:20) «الأب يحب الابن» وفي (كولوسي 1:13) يوصف بالقول «ابن محبته» وفي (يوحنا 1:18) يقول عنه «الابن الوحيد الذي هو في حضن الأب».

ويجب أن نلاحظ هنا أن الأب ليس له حضن بالمعنى الحرفي المادي بل المعنى الروحي العظيم وهو التآلف والحب والاتحاد وما يتبع ذلك من الإحاطة بكل الأسرار والمقاصد الباطنية.

إن الآية لا تقول «إن الابن كان في حضن الأب أو سيكون في حضنه», بل تقول «الذي هو في حضن الأب» ومعنى ذلك أن حضن الأب هو مركز الابن الدائم فهو مركزه قبل ظهوره على أرضنا وأثناء وجوده عليها وبعد انتقاله منها فالأقانيم في وحدة متصلة غير منفصلة.

كما يجب أن نلاحظ أن محبة الأب للابن أزلية وهذا ما صرح به المسيح في صلاته للأب «أيها الأب... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يوحنا 17:24).

2 - المدلول الثاني ... المعادلة للأب :

الذي يطالع ما جاء في (يوحنا 5:17, 18) عندما قال الرب يسوع لليهود الذين كانوا يطردونه ويطلبون أن يقتلوه «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» يدرك أنهم فهموا المعنى الخاص بالاسم «ابن الله» حتى إنه قيل عنهم: «من أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه. لأنه لم ينقض السبت فقط بل قال أيضا إن الله أبوه معادلا نفسه بالله».

وفي (يوحنا 7:19) قالوا لبيلاطس «لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله» وهذه المعادلة لم يختلسها اختلاسا لكنها حقه الخاص به, ففي (فيلبي 2:6) «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله».

وفي (يوحنا 10:30) يقول عن نفسه «أنا والأب واحد».

وهذه بعض الآيات التي تظهر المعادلة بين الأب والابن:

أ - أعمال اللاهوت :

«أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يوحنا 5:17).

«لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الأب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك» (يوحنا 5:19).

ب - في قيامة الأموات :

«لأنه كما أن الأب يقيم الأموات ويحيي كذلك الابن أيضا يحيي من يشاء» (يوحنا 5:21)

ج- الإكرام :

«لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الأب. من لا يكرم الابن لا يكرم الأب الذي أرسله» (يوحنا 5:23).

د - الحياة :

«كما أن الأب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضا أن تكون له حياة في ذاته» (يوحنا 5:26) .

هـ - الإيمان به :

«الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني» (يوحنا 12:44) .

و - الرؤية له :

«الذي يراني يرى الذي أرسلني» (يوحنا 12:45) .

«والذي رأي فقد رأي الأب» (يوحنا 9:14) .

ز - القبول له :

«الذي يقبلني يقبل الذي أرسلني» (يوحنا 13:20) .

«ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني» (لوقا 9:48) .

ح - المعرفة به :

«لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه» (يوحنا 14:7) .

ط - الازدراء به :

«والذي يرذلني يرذل الذي أرسلني» (لوقا 10:16) .

ي - المحبة له :

«والذي يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي» (يوحنا 14:21) .

ك - البغضة له :

«وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي» (يوحنا 15:24) .

ل - من حيث الامتلاك :

«كل ما للأب فهو لي» (يوحنا 16:15) .

م - من حيث المجد :

«والآن مجدني أنت أيها الأب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يوحنا 17:5) وأيضا في (لوقا 9:26) يقول «لأن من استحي بي وبكلامي في هذا يستحي ابن الإنسان متى جاء بمجده ومجد الأب والملائكة القديسين».

3 - المدلول الثالث إعلان الله :

من الواضح في كلمة الله أن «الله لم يره أحد قط» لكن أقنوم الابن هو الذي أعلنه فيقول «الابن الوحيد الذي هو في حضن الأب هو خير» (يوحنا 18:1) وكلمة «خير» تعني كشف ما أغلق على البشر فهمه من جهة اللاهوت. ولذلك قيل عنه في (كولوسي 1:15) «الذي هو صورة الله غير المنظور» بصفته المعلن لله. لاحظ أن الوحي لم يقل عن هذا الأقنوم إنه خلق على صورة الله، كما قيل عن آدم الأول المخلوق من التراب (تكوين 1:26, 27) ولم يقل إنه صار على صورة الله بل يقول إنه «صورة الله» أي إنه في ذاته هو «صورة الله» أو «المعلن» لله.

ولقد ورد في الكتاب المقدس عن صورة الشيء أنه «ذات الشيء» أو نصه فقد قال الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس «تمسك بصورة الكلام الصحيح» أي بذات الكلام الصحيح (2تيموثاوس 1:13) وقال في عبرانيين «لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء» أي «لا نفس حقيقة الأشياء» أو ذاتها (عبرانيين 1:10).

إذن فالمقصود بكلمة صورة الله هو «ذات الله» أو «الله معلنا» إذ إن الصورة هي الشيء المنظور الذي يمثل حقيقة كائنة، سواء كانت هذه الحقيقة ظاهرة لنا أم غير ظاهرة. لذلك في (عبرانيين 3:1) جاء عنه هذا القول: «بهاء مجد الله ورسم جوهره» ولذلك قال لفيلبس «الذي رأي فقد رأي الأب» (يوحنا 9:14).

إن ما فعله الشيطان لحرمان البشر من التمتع بالله هو أنه «أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضئ لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله» (2كورنثوس 4:4) أما بالنسبة لنا نحن المؤمنين فمكتوب «لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (2كورنثوس 6:4).

4 - مدلولات أخرى:

ومن دراسة كلمة الله الحية نلاحظ أن البنوة تدل على الوحدة في الصورة الإلهية (فيلبي 2:6, كولوسي 1:15, عبرانيين 3:1)

وتدل أيضا على المقام الإلهي لأننا نقرأ في (متى 37:21) أنه أرسل ابنه إلى الكرامين قائلا: «إنهم يهابون ابني» لأن الابن يحمل اسم أبيه ومقامه. ومن جهة الإكرام أيضا لاحظ (يوحنا 23:5)

كما أن هذه البنوة تدل على الوجدانية في جوهر اللاهوت «أنا والآب واحد» (يوحنا 10:30)

كما أنها تدل أيضا على أنها وحدة فريدة لا مثيل لها (يوحنا 18:1)

كما أنها وجدانية سرية فائقة: «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب» (متى 11:27).